مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــ المجلد: 11 / العـدد:01 (جانفي 2023) ص 625– 640
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

السّلّميّة الحجاجيّة في إثبات فلسفة الذّات عند محمد إقبال –نماذج من ديوانه أسرار إثبات الذّات–

Muhammad Iqbal's argumentation scheme of self-affirmation philosophy - samples of his divan secrets of self affirmation-

نوال هدنة [1]، عبد الرحمن جودي [2]
HEDNA Naouel [1] ; DJOUDI Abderrahmane [2]
1 مخبر الدّراسات اللّغوية والأدبية، جامعة 8ماي 1945 قالمة(الجزائر)،hedna.naouel@univ-guelma.dz
2 مخبر الدّراسات اللّغوية والأدبية، جامعة 8ماي 1945 قالمة(الجزائر)
djoudi.abderrahmane@univ-guelma.dz

تاريخ الاستلام: 2022/05/16	تاريخ القبول: 2022/09/28	تاريخ النشر: 2023/01/22

الملخص: تروم هذه الدّراسة الوقوف على البنية الحجاجيّة المسجّلة في الخطاب الشّعري عند محمد إقبال(1877م–1938م)، وذلك لرصد تجلّي نظرّية السّلالم الحجاجيّة فيه، هذه النّظريّة التي تندرج ضمن تيّار حديث في الدّراسات اللّسانيّة؛ وهو التّيار التّداولي الذي يعتبر الوظيفة الأساسيّة للّغة هي الوظيفة الحجاجيّة، أين سنسلّط الضوء على نماذج من ديوانه الذي جسّد فيه فلسفته حول إثبات الذّات؛ هذه الرؤية التي لطالما تناولها الباحثون بالدّراسة من جانبها الحضاري والفكري لما لها من تأثير على الصّعيد النّهضوي في العالم الإسلامي، أمّا دراستنا فستركّز على الجانب اللّغوي منه، وذلك من أجل البحث عن ماهية الآليات الحجاجية الموظفة والسّمات المميّزة فيه، لنستشفّ في الأخير استراتيجيّته في حشد الحجج وتنويعها وذلك من أجل إثبات مقاصده وغاياته.
الكلمات المفتاحية: الحجاج، السّلمية الحجاجية، فلسفة إثبات الذّات، محمد إقبال، الخطاب الشّعري.

Abstract:
This study tries to go through the structure of argumentation used in Muhammad Iqbal's(1877-1938) poetic discourse, in order to clarify the argumentation schemes theory, which lists in modern linguistic studies called the pragmatic stream that presents the main role of language. Hence, we will shed light on some parts of his divan in which he embodied his philosophy about the self, entitled as secrets of self-affirmation, which was a case study for many researchers on both civilizational and intellectual sides, due to its impact on the advancement of the Islamic world. Our research will focus on the lingual aspect in order to discover the nature of argumentative mechanisms and the distinctive features used. At last, we indicate Iqbal's strategy in putting a diversity of arguments for the sake of affirming his target.
Keywords: argumentation, argumentation schemes, self-affirmation philosophy, Muhammad Iqbal, poetic discourse**.**

المؤلف المرسل:نوال هدنة،**الإيميل**:hednanaouel@gmail.com

1.مقدمة:

يعدّ محمد إقبال مفكرا وفيلسوفا إسلاميا أفنى حياته في خدمة دينه وأمّته، فشعره وأدبه يفصحان عن فكره الدّاعي إلى النّزعة الإنسانيّة والوحدة الإسلامية الرافضة للوطنية والقوميّة بمفهومها الضيّق، وكذا المستنكر لمختلف المؤامرات التي تحيكها الحضارة الغربية المادّية ضد العالم الإسلامي.

لقد انفرد بفلسفة شعريّة تنمّ عن عبقريّة هذا الرجل، وكذا عن وعيّ وإدراك لما يجتاح العالم الإسلامي من أزمات، فنجده يصف الدّاء ويعطي الدواء والترياق المناسب لكل أزمة ملمّة مستندا في ذلك إلى كتاب الله العزيز وسنّة نبيّه الكريم، وإلى مختلف التجارب والخبرات التي اكتسبها في حياته.

لقّب محمد إقبال بفيلسوف الشّرق الإسلامي الذي درس الحياة والكون والإنسان دراسة واعية ومعمّقة؛ إذ إنّه كان واسع المعرفة بمذاهب الفلسفة الإسلاميّة والفلسفة الغربية، ساعده في ذلك درايته بالمبادئ الأساسية في العديد من العلوم العصرية كالاقتصاد والقانون والأدب والفلسفة...، مكّنته هذه المعرفة الخصبة من صياغة مذهب جمع فيه بين العلم والفنّ والدّين.

وتكتسي هذه الدّراسة أهميّة من خلال تركيزها في البحث عن القوّة الحجاجية في تقديم محمد إقبال لفلسفته حول الذّاتيّة، هذا الأمر الذي لم نجده في أغلب البحوث التي اقتصرت على تناول فكر إقبال حول الذّاتيّة من جانبها الفلسفي أو الفكري الحضاري وحسب، ولم تتطرّق إلى مكامن القوّة من جانبها اللّغوي وذلك في طرح أفكاره التي ذاع صيتها في العالم العربي الإسلامي والغربي على حدّ سواء؛ بحكم ما تحمله من قيم إنسانيّة وأخلاقيّة منبثقة من العقيدة الإسلامية السّمحاء.

وإشكالية بحثنا تدور حول القوّة الحجاجية والآليات الموظّفة، وترجمناها في سؤالين: فيم تكمن القوّة الحجاجية التي وظّفها محمد إقبال في شعره حول فلسفة الذّات؟ وما هي الآليات الحجاجية الموظّفة في شعره؟

وهذا ما نودّ الوقوف عليه في بعض المقتطفات من شعر محمد إقبال، في ديوانه أسرار خودي " أسرار إثبات الذّات"؛ حيث سنقف على أهمّ الحجج التّي وظّفها الشّاعر من أجل إثبات فلسفة الذّات الخاصّة به، والتّي يروم بها تبيان جدوى فكره النّهضوي الإسلامي الذّي يرقى بالذّات البشريّة والنّهوض بالأمّة العربية والإسلامية للوقوف في وجه العالم الغربي، مستعينين في ذلك بنظرية لغوية حديثة المنشأ، وهي نظرية اللّغوي الفرنسي أوزوالدديكرو Ducrot OSWALD (1930) ممثّلة في نظرية السّلالم الحجاجيّة.

2.فلسفة الذّات عند محمد إقبال:

إنّ النّهضة العلميّة والثّورة الصّناعية الأوربية كانت أحد أهمّ الأسباب في بناء الإنسان الغربي المعاصر؛ إذْ إنّ كثرة الإنتاج غيّرت وجهة النّظر نحو الحياة ونحو الأسلوب الفكري، بحيث جعلته يؤمن بالحلول المادّية لشؤون الحياة ولا يؤمن بالقيم الخلقيّة، فأدركت من العلم قوّته المادية لا الرّوحية (الغوري ا.، 2000، الصفحات 17–48) ، لذلك كان بحث محمد إقبال عن الإنسان الكامل ليس مجرد إبحار في الفلسفة ونقد للتصوّف الوجودي، وإنّما كان ضرورة عملية تمخّضت عن تحليله لواقع الحضارة المعاصرة التي أدرك من خلالها مقدار الأزمة الحضارية وأزمة الإنسان المعاصر آنذاك.

وعليه فإنّ المحور المركزي الذي تقوم عليه فلسفة إقبال يرتكز على مفهوم الذّاتية، وذلك بغية الوصول إلى تحديد حقيقة الإنسان الكامل.

يشير إقبال إلى أنّ: "حياة الذّات هي نوع من التّوتر الناتج عن غزوّ الذّات للبيئة وغزوّ البيئة للذات، ولا تقف الذّات خارج هذه الحلبة التّي يتمّ فيها الغزوّ المتبادل، فهي حاضرة في قلبها كطاقة موجهة، وهي تتشكّل وتتهذّب بتجربتها الخاصة".(إقبال، 2011، صفحة 170)

ويضيف: "أنّ الحياة تفسح مجالا لنشاط الذّات، والموت هو أوّل اختبار للنشاط التركيبي لها، فليس هناك أعمال ينشأ عنها لذّة وأعمال ينشأ عنها ألم، وإنّما يوجد فقط أعمال تعمل على بقاء الذّات وأعمال تعمل على انحلالها، والعمل هو الذي يعدّ الذّات للانحلال والفناء أو يقوّمها من أجل حياة أخرى مستقبلية، ومبدأ العمل الذي يحفظ بقاء الذّات هو احترامي للذّات في داخل نفسي وفي غيري من النّاس، فإنّ الخلود الشّخصي ليس ملكا لنا بصفته حقّا، وإنّما نكتسبه بالكدح الشّخصي"(إقبال، 2011، صفحة 194)، فهذه الفلسفة قائمة على تحفيز المرء على العمل والكدح من أجل إثبات الذّات في معترك هذه الحياة، الأمر الذي يكسب هذه الذّات الرفعة والمكانة والخلود.

وهذا الأمر الذي خالف فيه أصحاب وحدة الوجود الذين يدعون إلى سلب الذّات وإماتتها وإذلالها وإضعافها حتّى تؤهّل في الفناء في ذات الله؛ وهو تصوّف عجمي سلبي مغاير لما يدعو إليه التصوّف الإسلامي الرّامي إلى العمل والاجتهاد من أجل العيش الكريم والخلود الأبديّ.

ففي نظر محمد إقبال، إنّ الإنسان الكامل الذي استشفّ فيه معاني الإنسانية والقوّة والحياة والجمال والكمال هو "المسلم" لا أقلّ ولا أكثر، فهو الصّورة الكاملة للإنسانية الذّي يمتاز بالتّوحيد والإيمان واليّقين والقوّة والشّجاعة وبحبّه للإنسانيّة جمعاء. (الندوي، 1960، صفحة 52)

وحسب إقبال، إنّ "المسلم خُلق ليوجّه العالم والمجتمع والمدنية، ويفرض على البشرية اتّجاهه، ويُملي عليها إرادته؛ لأنّه صاحب الرّسالة والعلم اليّقين، فليس مقامه مقام التّقليد والاتّباع، بل مقامه مقام الإمامة والقيادة".(الندوي، 1960، صفحة 56)

يبدو لنا ممّا سبق؛ أنّ الشّاعر متشبّع بالعقيدة الإسلامية السّمحاء ما جعله يدرك سرّ خلق الإنسان ودوره ووظيفته في هذه الحياة، الأمر الذي نجده يحثّ عليه ويبيّنه في معظم أشعاره وكتاباته.

3.الحجاج ونظرية السّلالم الحجاجية:

إنّ التّداوليين يقرّون بأنّ الخطاب الحجاجي خطاب يتّسم بخصائص بنائية تواصليّة براغماتيّة تجعله يؤدّي الوظيفة المناط به، حيث يستعمله الباثّ بغية التّأثير في متلقّيه وذلك باستخدامه لمجموعة من الآليات والوسائل التّي تمكّن المتكلّم من توجيه مقاصده نحو وجهة معيّنة، الأمر الذّي يسمح للمتلقّي بتأويله على نحو سليم، خاصّة إذا تعلّق الأمر بالخطابات الشّعرية التي تحتمل العديد من التّأويلات والقراءات.

وبالنّظر إلى النّظريّة الحجاجية اللّغويّة والمتمثّلة في أعمال ديكروDUCRO(1930) وانسكومبرANSCOMBRE فإنّها تستند مرجعيا إلى "الإسهامات التّداولية التي ميّزت نظريّة الأفعال اللّغوية عند أوستين AUSTIN(1911–1960)وسيرلSEARLE (1932)، كما تستند إلى أبحاث إيميل بنفنستBENVENISTE (1902–1976) حول التّلفّظ وإلى حواريّة باختينBAKHTINE (1895–1975)". (عادل، 2013، صفحة 95)

هذه النّظرية اللّغوية تندرج ضمن مايعرف بالتّداوليّة المدمجة، وهي "النّظريّة الدّلاليّة التي تعطي الأهمّية الأساس للمعطيات التّداوليّة في إطار المعنى" (كروّم، 2000، صفحة 189)، وإنّ غاية البحث اللّساني عند ديكرو هو: "البحث عن الدّور الحجاجي الذّي يلعبه الكساء اللّغوي لهذه الوقائع" (Ducrot & Anscombre, 1986, p. 79)، وليس بناء الحجج على أسس فلسفية أو منطقية أو بلاغية، حيث يسعى أصحاب هذا التّوجّه اللّساني إلى التّأكيد على الصّفة الذّاتيّة والجوهرية للّغة والمتمثّلة في الوظيفة الحجاجية، على اعتبار أنّ الأفراد يخاطب بعضهم

بعضا قصد التّأثير فيما بينهم مستعينين في ذلك بالمعطيات المؤشّر لها في بنية الأقوال ذاتها، والتي توفّرها اللّغات الطّبيعية في مستوياتها الصّوتيّة والصّرفية والتركيبيّة والدّلالية في طريقة تركيبها وترتيبها.

والغاية من هذه النّظرية الدّلالية الانزياح عن قوانين الخطاب التي انبثقت عن الدّرس التّداولي في فهم التّوجيهات المستنتجة من السّياق التداولي، نحو فهم الملفوظ انطلاقا من بنية اللغة الداخلية.

إنّ الحجاج هو تقديم الحجج والأدلّة المؤدّية إلى نتيجة معينة، ويتمثّل في إنتاج تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى يتمثّل الحجاج في إنتاج متواليات من الأقوال، بعضها بمثابة الحجج اللغوية وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها.(العزاوي أ.، 2010، صفحة 58)،ومنه فإنّ جميع الخطابات –مهما كانت طبيعتها– تتشكّل من مجموعة حجج ونتائج.

وقد أعطى ديكرو دلالة أوسع لمفهوم الحجّة والنّتيجة والتي كانت عبارة عن أقوال لتنتقل حسب تصوّره الجديد لتشمل كلّ عنصر دلالي يقدّمه المتكلّم لصالح عنصر دلالي آخر، والحجّة قد ترد في هذا الإطار على شكل قول أو فقرة أو نص أو قد تكون مشهدا طبيعيا أو سلوكا غير لفظي...كما قد تكون الحجة ظاهرة أو مضمرة حسب السّياق والشيء نفسه بالنسبة للرابط والنتيجة. (العزاوي أ.، صفحة 59)

وعليه، إنّ: "نظرية المراتب الموجّهة توجيها قصديا تشارك بعض الاتجاهات اللّسانية المنطقية في التّسليم بأنّ الوحدات الأولى التّي هي الأصل في الخطاب الطبيعي ليست هي المفردات كما اشتهر، وإنّما هي وحدات حواريّة حجاجيّة تتمثّل في المركبات التّي هي الأقوال". (طه، 1998، صفحة 275)

والسّلم الحجاجي: "هو علاقة ترتيبية للحجج" (العزاوي أ.، 2006، صفحة 20)، وهو حسب ديكرو فئة حجاجية موجهة(Ducrot O. , 1980, p. 18)،فهو بهذه المفاهيم عبارة عن مجموعة من الحجج مرتبة ترتيبا إمّا تصاعديا أو تنازليا بحيث أنّ كلّ فكرة أو حجة تخدم الحجّة التّي تليها وتقوّيها وتدعّمها، وبالتالي توجّهها للإذعان والتّسليم بها، فتكون جميع هذه الحجج تصبّ في خدمة وإثبات قضية ما.

ويعرّفه طه عبد الرحمن(1944) بأنّه: "عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزوّدة بعلاقة ترتيبية" (طه، الصفحات 274–278)، ويتّسم السّلم الحجاجي بالسّمتين الآتيتين:

1 – كلّ قول يرد في درجة ما من السّلم يكون القول الذّي يعلوه دليلا أقوى منه بالنسبة إلى "ن".

2 – إذا كان القول "ب" يؤدّي إلى النتيجة "ن"، فهذا يستلزم أنّ "ج" أو "د" الذي يعلوه درجة يؤدي إليها والعكس غير صحيح.

قوانين السّلم الحجاجي: أهمها:

1.3.قانون تبديل السّلم (قانون النّفي):إذا كان القول دليلا على مدلول معيّن، فإنّ نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله؛ أي إذا كان قول ما (أ) مستخدما من قبل متكلّم ما ليخدم نتيجة معيّنة، فإنّ نفيه أي (~ أ) سيكون حجّة لصالح النتيجة المضادة، وبعبارة أخرى؛ فإن كان (أ) ينتمي إلى الفئة الحجاجية بواسطة (ن) فإن (~أ) ينتمي إلى الفئة الحجاجية المحدّدة بواسطة (لا–ن).

2.3. قانون القلب: إذا كان أحد القولين أقوى من الآخر في التّدليل على مدلول معيّن، فإنّ نقيض الثاني أقوى من نقيض الأول في التّدليل على نقيض المدلول.

يرتبط هذا القانون بالنّفي ويعدّ تتميما له، ومفاده أنّ السلّم الحجاجي للأقوال المنفيّة هو عكس سلم الأقوال الإثباتية، وبعبارة أخرى؛ إذا كانت إحدى الحجتين أقوى من الأخرى في التّدليل على نتيجة معينة فإنّ نقيض الحجّة الثانية أقوى من نقيض الحجة الأولى في التّدليل على النتيجة المضادة. (العزاوي أ.، صفحة 62)

3.3.قانون الخفض: مقتضى هذا القانون أنّه إذا صدق القول في مراتب معيّنة من السّلم فإنّ نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها.

ويوضح قانون الخفض الفكرة التّي ترى أنّ النّفي اللّغوي الوصفي يكون مساويا للعبارة [moins que]، فعندها نستعمل جملا من قبيل: "الجوّ ليس باردا"، فنحن نستبعد التّأويلات التي ترى أنّ البرد قارس وشديد، وسيؤول القول إذا لم يكن الجوّ باردا فهو دافئ أو حار، وتتجلّى صعوبة صياغة هذه الوقائع في أنّ الخفض الذّي ينتج عن النّفي لا يتموقع في السلّم الحجاجي ولا يتموقع أيضا في سلّميّة تدريجية موضوعية يمكن تعريفها بواسطة معايير فيزيائية؛ فلا تندرج الأقوال الإثباتية من نمط "الجوّ بارد"، والأقوال المنفيّة "الجوّ ليس باردا" في الفئة والسلّم الحجاجيّ نفسه، ولقد اقترح طه عبد الرّحمن صياغة تقريبية لهذا القانون فقال: "إذا صدق القول في مراتب معيّنة من السلّم فإنّ نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها" (العزاوي أ.، صفحة 63). فالحجج المنتمية إلى فئة حجاجية ما تنتمي إلى السّلم الحجاجي نفسه. (العزاوي أ.، صفحة 60)

ويعد مفهوم القسم الحجاجي أو الفئة الحجاجية من الركائز الأساسية لهذه النّظرية، ومفاده أن يقدّم المتكلّم قولين (ق، قَ) معتبرا أنّهما حجّتان لفائدة النتيجة (ن)، ولكن إذا نظرنا في العلاقة بين (ق، قَ) فإنّ المتكلّم قد يعتبر إحدى هاتين الحجّتين أقوى من الأخرى بالنسبة إلى (ن)، وهذا القسم الحجاجي قائم على علاقة تراتبية تكوّن سلّما حجاجيا يمثّل له ديكرو بالرّسم التالي:

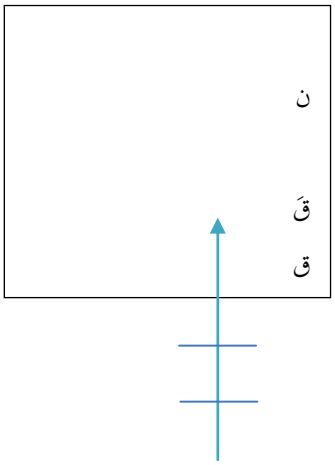

إنّ النّفي الذي اقتصر عليه ديكرو هو النّفي الوصفي "أي النّفي الذي يقع على حالة الأشياء في الكون دون النّفي الجدالي والنّفي الماوراء لغوي اللّذين يتّصلان بتصحيح قول آخر أو إبطاله".(مبخوت، دت، صفحة 365)

4. العوامل والروابط الحجاجية

إنّ التّوجيهات التي تقدّمها العلامات اللّغوية تسمح للمخاطب بإسناد المعاني للملفوظات معتمدة في ذلك على مختلف العوامل والرّوابط الحجاجية التي توفرها بنية الخطاب؛ بعبارة أخرى فإنّه لا يمكننا الوقوف على السلّمية أو المدارج الحجاجية دون الاعتماد على مختلف الآليات والأدوات التي توفرها اللّغات الطّبيعية.

ويعرّف الرابط الحجاجي بكونه: "وحدة لغويّة تصل بين ملفوظين أو أكثر تمّ سوقها ضمن نفس الاستراتيجية الحجاجية "(الراضي، 2010، صفحة 437)، ومن أمثلته، حروف العطف، بل، لكن، حتى، إذا، إلاّ...

والرابط الحجاجي مرتبط أشدّ الارتباط بقصد المتكلّم؛ ذلك أنّه يقوم بنظم كلامه وفق طريقة معيّنة تستوجب ترتيبا وانسجاما بحسب الهدف المقصود من عمليّة المحاجّة، فالبنية اللّغويّة الحجاجية ليست مجرّد رصف للأقوال وإنّما تعتمد استراتيجيّة خاصّة، هي خدمة القضيّة.

أمّا العامل الحجاجي فهو عبارة عن: " صريفة (مورفيم) إذا تمّ إعمالها في ملفوظ معيّن يؤدّي بذلك إلى تحويل الطاقة الحجاجية لهذا الملفوظ"(الراضي، 2015، الصفحات 101–102)، مثل: أدوات الشرط، وأدوات الحصر...

فهذه العوامل الحجاجية تدخل الإسناد وتعمل على توجيهه وحصره في وجهة واحدة، بحيث تجعله يحيل إلى نتيجة واحدة لا غير.

ناهيك عن هذا "ومع أنّ السّلم الحجاجي يبدو مقتصرا على العلاقات اللّغويّة أو شبه المنطقية إلاّ إنّه يمكن توسيع مفهومه، فلا يظلّ مقتصرا على الأدوات اللّغويّة أو الاستلزامات شبه المنطقية، إذ يمكن أن يتمّ إدراج كثير من أدوات الحجاج وآلياته ضمنه، ليصبح إطارا عاما لتفاضل الحجج، بل وتغليب بعضها على البعض، انطلاقا من المخزون اللّغوي ونظامه والتراتبيّات المكتنزة في ذهن الإنسان بتفعيل الكفاءة التداوليّة، ويتمثّل هذا في السلّم الحجاجي للمفهوم، وفي انتماء بعض الخطابات إلى سلّميّة معيّنة مستقرّة في كفاءة المرسل التّداولية لوجود علاقات بينها تحكم منطق تراتبها والسّياقات التي ترد فيها مثل علاقات التّوكيد، وما يسمّى بالأدلّة أو الشّواهد الجاهزة، كالأدلّة القرآنيّة والأحاديث الشّريفة وأقوال السّلف والحكم والأمثال..." (الشهري، 2015، صفحة 290)

5.السّلّمية الحجاجية في إثبات الذّات عند محمد إقبال:

إنّ مفهوم الذّات عند [محمد إقبال] ليس هو المفهوم الشائع والمتداول لدى عامّة النّاس والذي يحمل في الأغلب المعاني السّلبية، وإنّما اجتهد ليرسّخ المعنى الإيجابي منه، إذ يقول: "وينبغي أن يعلم القرّاء أنّ لفظ "خودي"لا يستعمل في هذه المنظومة بمعنى الأثرة كما يستعمل في اللّغة الأردية غالبا إنّما معناها الإحساس بالنّفس أو تعيين الذّات". (الغوري ا.، 2007، صفحة 114)

فحرص إقبال على بثّ ثقافة حبّ الذّات واحترامها وردّ الاعتبار لها والثّقة بها وتقويتها، وهذا الأمر الذي يُسهم في إرساء قواعد العدل والمساواة والحقّ، وهو الأمر الذي تصلح به الحياة ويزدهر به المستقبل والأساس الذي تنهض به الأمم.

وفي رسالة بعث بها إلى المستشرق الإنجليزي رينولدنكلسونR.Nicholson (1868–1945)–وهو مترجم مثنوي جلال الدّين الرومي ومترجم أسرار خودي إلى الإنجليزية– يسأله أن يكتب مقالا يوضّح فيه مذهبه حيث ردّ

فيه محمد إقبال:" أرى أنّ هدف الإنسان الدّيني والأخلاقي إثبات ذاته لا نفيها وعلى قدر تحقيق انفراده ووحدته يقرب من هذا الهدف" (عزام، 2014، صفحة 55)

يقول محمد إقبال في ديوانه أسرار الذّات:

قُــلْ لمنْ يزهَى بِذبحِ الغنَــمِ اذبحْ النَّفسَ بحـقٍّ تَغْنَـمِ

يقطعُ السُّبلَعنْ هذي الحياةِ قوّةٌ فيهَا وسُلطانٌ وجَــاهٌ

يُوطِأُ العُشبَ فينْمُو صعَــــدًا يفْتحُ العَينَ منْ بعْدِ الرَّدَى (إقبال، 2007، صفحة 146)

يريد الشاعر في هذه الأبيات أن يقدّم مجموعة من الحجج ليثبت جدوى كلامه، حيث إنّه يفتتح كلامه بتقديم الحجة الأولى بفعل لغوي أمري "**اذبحْ النّفسَ**" ويقابلها بنتيجة "**بِحَقٍ تَغْنَم**"؛ وهي إشارة إلى أنّ الفوز والنّجاح في هذه الحياة يكون بكبح النّفس عن ما يسوؤها ويحيد بها عن جادّة الصّواب؛ ثم يتبعها بحجة ثانية مستعملا في ذلك عاملا حجاجيا متضمّنا أسلوبا للشرط حيث يقول "**بقطعِ السُّبلِ عن هَذي الحَياة**" وجوابه "**قوّة فِيها وسلطانٌ وجَاه**"، وقصده من ذلك أنّه بالابتعاد عن مفاتن هذه الدّنيا يكسب المرء قوّة وسلطانا ومكانة مرموقة، ولا يتوقّف محمد إقبال عند هذا الحدّ في إثبات جدوى قضيّته وإنّما نجده يصعّد في وتيرة السلّمية الحجاجية أين يقدّم حجّة ثالثة ورابعة مقرونتين بنتيجتين متتابعتين مرتبطتين أشدّ الارتباط بالحجج السّالفة الذكر، فاعتمد فيهما حجّتين غير صريحتين لأنّه عمد فيها إلى إدخال عنصر التّشبيه حيث يقول: "**يُوطِأُ العشْبَ فينْمُو صعَدَا يفتحُ العَينَ من بعدِ الرَّدَى**"؛ وعليه فإنّ كبح جماح هذه النّفس يزيل الرؤية الضبابية وينير البصيرة، ويفتح الآفاق ويعين على الوصول إلى المراتب العليا.

إنّنا نلحظ علاقة تراتبية بين الحجج الأربعة الموظفة، وهي موجّهة جميعها لخدمة نتيجة واحدة ألا وهي فائدة تربية الذّات الإنسانيّة، كما نلحظ أنّ الشّاعر حاول التأثير في المتلقي أكثر وذلك بنقله من الجانب المادّي الملموس إلى الجانب المعنوي؛ أي من الحجة الأولى والمتعلّقة بالمكسب المادّي لتربية الذّات ألا وهو السّلطان والجاه إلى المكسب المعنوي "**يفتحُ العَينَ من بعدِ الرَّدَى**"، وهو نور للبصيرة والطّريق المستقيم والسّوي.

ويمكننا أن نمثّل لعملية التّدرّج في الحجج كالآتي:

ن=فائدة تربية الذّات الإنسانيّة

يفتحُ العَينَ من بعدِ الرَّدَى ح4
يُوطِأُ العُشْبَ فَينْمُو صَعَدًا ح3
قُوَّةٌ فِيهَا وسُلْطانٌوَجَاهٌ ح2
اذبَحْالنَّفْسَ بِحقِّتَغْنَمِ ح1

فكمال الذّات الإنسانية عند إقبال مرتبط بالاختيار والحريّة، وكذا بتغذيتها بأسمى الأخلاق الفاضلة، بالإضافة إلى دفعها إلى العمل والكدح من أجل تحقيق كيانها.

وقد وضع إقبال مجموعة من الأسس التي تُسهم في إثبات الذّات وتقويتها من بينها: خلق المقاصد، والعشق، والشّجاعة ... كما بيّن أنّ الذّات تضعف وتذلّ بالسّؤال.

وفي بيان أنّ حياة الذّات تكون بتخليق المقاصد وتوليدها وكذا التّحلّي بالآمال يقول محمد إقبال:

إِنَّمَا يُبْقِي الحَياةُ المَقْصِـــدُ جَرسُفِي رَكبِهَا مَا تَقْصِدُ
سِرُّ عَيْشٍ فِي طِلاَبٍ مُضْمَرٍ أَصْلُــهُ فِـــي أَمَـلٍ مُسْتَتِرٍ
أَحْيِ فِي قَلْبِكَ هـذَا الأَمَـــلاَ لَا يَحْـلُ طِينُكَ قَبْرًا مُهْمَلًا
يَخْفِقُ القَلبُ بِهِ بَيْنَ السُّطُورِ هُوَفِي صَدْرِكَ مِرآةٌ تُنِيرُ
يَهَبُ التُّربَ جَنَاحًا يَصَّعَـــدُ وَلِمُوسَى العَقْلِ خَضِرًا يَرْشِدُ(إقبال، 2007، صفحة 136)

يشير محمد إقبال في هذه الأبيات إلى أنّ جوهر الحياة مرتبط بالمقاصد والآمال، فهو الشّعلة المحرّكة للمواصلة والاستمرار في خوض معتركات الحياة؛ إذ إننا نجده يقدّم لهذه الحجّة مجموعة من الحجج ليقنع المستمع بذلك، فنجده يستهل الحديث عن المقاصد بقوله: " **إِنَّما يُبْقِي الحَيَاةُ المَقْصِدُ**"، وهي بمثابة الحجّة الأولى؛ فيشير إلى أنّ جوهر هذه الحياة متوقّف على تحديد الغايات والأهداف المراد تحقيقها، ثمّ يضيف حجة ثانية حيث يقول: "سِرُّ عَيشٍ فِي طِلابٍ مُضْمَرٍ أَصْلُهُ فِي أَمَلٍ مُسْتَتِرٍ"، ويقصد أنّ سرّ العيش الهنيّ هو مرتبط بالآمال التي يعقد المرء وينوي الوصول إليها، فهي الشّعلة التي تحيي القلب وتجعله متشبّثا بهذه الحياة على الرّغم ممّا يلقاه منعثرات، ثمّ يتبعها بحجة ثالثة مصدّرة بنصيحة أمريّة صريحة تثبت نجاعة كلامه حيث يقول: " **أَحْيِ فِي قَلْبِكَ هَذَا الأَمَلَا لَا يَحْلُ طِينُكَ قَبْرًا مُهْمَلًا** "، فقد وظّف الشاعر هنا أسلوب النّفي؛ وقانون النّفي الذي يندرج ضمن نظريّة السّلالم

الحجاجية، فقد سبق أن أشرنا إلى قاعدة مفادها إن كان (أ) ينتمي إلى الفئة الحجاجية بواسطة (ن) فإن (~أ) ينتمي إلى الفئة الحجاجية المحددة بواسطة (لا–ن)، وعليه فإنّ استخدام أسلوب النّفي هنا يجعل هذه الحجة تخدم وتعضد بقوّة الحجج التّي تسبقها وتليها، لأنّها تنتمي إلى فئة حجاجية أو قسم حجاجي واحد، فإحياء القلب بالمقاصد والآمال يجعل من قبر المرء قبرا مخلّدا بالذّكر الحسن، لأن الأعمال لا تموت بموت صاحبها وإنّما تبقى شاهدة على إنجازاته ومواقفه. ثمّ أردف قوله ب:" **هو في صدرك مرآة تنير**"، وهي حجة رابعة يريد بها أنّ الآمال والمقاصد بمثابة المصباح المنير، وهي حجة ضمنية غير صريحة أين شبّه الأمل بالمرآة التي تنير قلب صاحبه وترشده إلى جادّة الصّواب.

ونجد محمد إقبال يختم هذا المقطع بحجة أخيرة، وهي تمثل ذروة السّلم الحجاجي حيث يقول:" **ولِموسَى العقلِ خَضِرًا يَرْشِدُ**"، حيث إنّ الشّاهد والحجّة هنا مقتبسة من قصّة موسى والخضر في القرآن الكريم أين وظّفها الشاعر في آخر المقطع لتكون حجّة دامغة، والغرض منها هو زيادة الإقناع والإذعان، هذه الحجّة التي تعكس ثقافة إقبال الدّينية من جهة والموجّهة إلى الأمّة الإسلاميّة خاصة من جهة ثانية، ذلك أنّ الشّاهد القرآني له أثر بالغ في نفوس المتلقّين لما له من قيمة روحانية تجعل من السّامع يبلغ درجة اليقين والإيمان والتّسليم.

إنّ المتمعّن في هذه الحجج المقدّمة يلحظ بأنّ الشّاعر هنا قد درج أفكاره بطريقة تراتبية موجّهة لخدمة نتيجة واحدة، هي أنّ سرّ الحياة مرتبط بالمقاصد والآمال، فنجد أنّ كلّ حجّة تخدم الحجة التي تليها وتدعمها وتقويها، وأنّ كلّ حجّة هي أقوى من سابقتها.

ومنه يمكن أن نمثّل لهذا السّلّم الحجاجي كما يأتي:

ن = سرّ الحياة مرتبط بالمقاصد والآمال

ح5 ولِموسَى العقلِ خَضِرًا يَرْشُدُ

ح4 هُوَ فِي صَدْرِكَ مِرْآةٌ تُنِيرُ

ح3 أَحْيِهِ فِي قَلْبِكَ لَا يَحْلُ طِينُكَ قَبْرًا مُهْمَلًا

ح2 سِرُّ عَيشٍ أَصلُهُ فِي أَمَلٍ مُسْتَتِرٍ

ح1إنَّما يُبقِي الحَيَاةُ المَقْصِدُ

كما أشار محمد إقبال إلى أنّ تربية الذّات تمرّ بثلاثة مراحل؛ حيث يرى أنّ هذه التربية تبدأ بالطّاعة والامتثال لأوامر الله ونواهيه ثم تنتقل بعد ذلك إلى ضبط النّفس وكبح جماحها ووزنها بميزان العقل ثمّ يأتي من بعد ذلك المرحلة الثالثة وهي نتيجة حتميّة للمراحل السّالفة الذكر، وهي مرحلة الخلافة والتي يصبح الإنسان فيها مؤهّلا لأن يكون خليفة الله في الأرض، حيث يقول في مرحلة ضبط النّفس وهي مرحلة أساسية في تربية الذّات وإثباتها وتقويتها:

جَمِّلْنَفْسِكَ تَرْبُو بالعَلَفِ فِـــي إبَـاءٍ وَعِنَـــادٍ وَصَلَـفِ
حُبَّ جَـــاهٍ وَثَـــرَاءٍ وَبَلَدٍ حُـــبَّ زَوجٍ وَقَـرِيبٍ ووَلَـــدٍ
كُلُّ مَنْ فِي نَفسِهِ لَا يَحْكُمُ هُـوَ فِـي حُكْمِ سِوَاهُ مُرْغَـمُ
فَكُنْ الحُـرَّ وقُدْهَا بِزِمـــامٍ تَبْلُغَنَّ مِنْ ضَبْطِهَا أَعْلَى مَقَامٍ
مَنْ يَمسَّكْ بِعَصَا " لَا إِلَهَ" فَلْتُحَطِّمْ طَلْسَمَ الخَوفِ يَـدَاهُ
فَكُنِ الحُـرَّ وَقُدْهَا بِزِمَـامٍتَبْلُغَنَّ مِنْ ضَبْطِهَا أَعْلَى مَقَامٍ(إقبال، 2007، صفحة 154)

استهلّ الشّاعر مطلع كلامه بصورة بيانية أين شبّه فيها النّفس بالجمل حيث قال:" **جَمَلُ نَفْسِكَ تَرْبُو بِالعَلَفِ فِي إِبَاءٍ وَعِنَادٍ وَصَلَفٍ**(الفيروز أبادي، 2008، صفحة 941) "، فنجده قد وصف النّفس بأوصاف حقيقية توجد في طبائع أغلب البشر، أين ربط بينها بالرابط الحجاجي "و" (السامرائي، 2007، صفحة 187)، وهو الرابط المناسب لجمع جلّ الرّغبات التّي تريد النّفس البشرية ابتغاءها وهي صفات تحمل ذوي الألباب على عدم اتّباعها والانقياد لها، ثمّ أتبع كلامه بتعداد مختلف الشّهوات التّي تميل النّفس البشرية إلى بلوغها، أين يعدّ هذين البيتين بمثابة حجّة أولى جعلها محمد إقبال كمقدّمة وقاعدة لما سيأتي من الحجج فيما بعد.

وإنّ المتمعّن في الحجج الثلاثة التالية يجد أنّ الشّاعر صدّرها جميعها بجمل شرطيّة، فالشرط هو: "**أن يقع الشّيء لوقوع غيره**"(السامرائي، 2007، صفحة 46)، حيث إنّ غايته من ذلك حصر خيارات المتلقي وتوجيهه نحو نتيجة حتميّة، وذلك من أجل رفع درجة التّسليم والإذعان؛ فذكر في الحجة الثانية أنّ من لا يستطيع ضبط نفسه فهو في حكم المقيّد والأسير والمجبر، فذكر:" **كُلُّ مَنْ فِي نَفْسِهِ لَا يَحْكُمُ هُوَ فِي حُكْمِ سِوَاهُ مرْغَم**"، وأردفها بحجّة ثالثة مصدّرة بعامل حجاجي آخر إذ يقول: "**فكُنِ الحُرَّ وَقُدْهَا بِزِمَامٍ تَبْلُغَنَّ مِنْ ضَبْطِهَا أَعْلَى مَقَام**" ؛ أيأنّ من هذّب هذه النّفس وقوّمها فإنّه سيبلغ المراتب العليا في كمالها واستقامتها ورقيّها.

ثمّ يأتي الشّاعر في الأخير ليختم مقطعه هذا بنتيجة حتميّة، وذلك بقوله:" **مَنْ يَمسَّكْ بِعَصَا " لَا إِلَه" فلتُحَطِّمْ طَلْسَمَ الخَوْفِ يَدَاهُ**". وهي جملة شرطية مصدّرة ب:"من"، مع توظيف الرابط "الفاء" الذي يفيد العلاقة السّببية، هذا وإنّ توظيفه لكلمة "لا إله" هو اختصار لكلمة لا إله إلا اللّه و التي كثيرا ما يستعملها الشاعر فيشعره؛ وتعني إنّما السّبيل إلى إبطال طلسم الخوف أن تمسك عصا التّوحيد كعصا موسى التّي تبطل السّحر، وهو الذي يرمي إليه الشاعر كنتيجة أخيرة وهي علاقة استلزامية بين طرفي الجملة فتبنّي العقيدة السّليمة تكسر كلّ قيود الخوف والضعف، ليخلص في الأخير إلى نتيجة عامّة تندرج ضمنها هذه الحجج وهي أنّ القصد والنيّة في الأعمال يشكّل عماد الأمر كلّه.

لقد ذكر ديكرو في كتابه السّلالم الحجاجية: " أنّ كثيرا من أفعال التلفظ تتميّز بوظيفة حجاجية، وتتمثّل هذه الوظيفة في كون هذه الأفعال تسعى إلى جعل المخاطب يصل إلى نتيجة معينة أو ينصرف عنها، وأقل بساطة من ذلك، ربما الملاحظة التّي تقول إنّ هذه الوظيفة تخلّف علامات في بنية الجملة ذاتها، إنّ القيمة الحجاجية للملفوظ ليست فقط نتيجة للمعلومات التي يسوقها، ولكن الجملة يمكنها أن تتضمّن صريفات وعبارات وصيغا مختلفة تؤدي إضافة إلى وظيفتها الإخبارية وظيفة منح الملفوظ وجهة حجاجية"(Ducrot O. , p. 15)، وهذا ما يعبّر عنه ديكرو بانطباع التّلفّظ في بنية الملفوظ، ولهذا فإنّ الحجاجيات اللّسانيّة عدّت امتدادا لنظريّة الأفعال الكلامية.

فلو أنعمنا النّظر في أفعال التّلفّظ التي وظّفها محمد إقبال لوجدنا أنّ جلّها صيغا أمريّة الغاية منها الحضّ على عمل ما أو اجتنابه، وهذه الأفعال في حدّ ذاتها تعمل على توجيه الفعل الحجاجي نحو وجهة صريحة تمثل الغاية التي يرجوها الشّاعر من خطاباته خدمة لقضيته؛ ذلك أنّ أسلوب الأمر نابض بالإثارة وله القدرة على تحريك الأنفس نحو القيام بفعل ما، من جانب آخر فإنّ العلاقات السّلّميّة تبنى بناء ذاتيا من قبل المتكلّم؛ فالقول بتفضيل حجّة إزاء أخرى هو أمر نسبي تتدخّل فيه طبيعة النّتيجة المقصودة أولا ثمّ مختلف المعطيات المتعلّقة بالمتكلّم والمخاطب والأوضاع والمعارف...غير أنّ الثابت في الأمر هي الصّورة التي يتمّ فيها إفراغ هذه المتغيّرات، وهذا ما نستشفّه في خطاب محمّد إقبال الشّعري؛ إذ أنّ مواقفه ومبادئه وقيمه واضحة جليّة يرغّب فيها الجمهور المستمع ترغيبا وهذا ما نلحظه في طريقة تقديمه للحجج.

6. خاتمة:

ممّا تقدّم يمكننا أن نقف على مجموعة من النّقاط:

– أنّ الفكرة الجوهريّة لفنّ إقبال الشعري هي رغبته تمثّل الوقائع وتصوير الحقائق الصّادقة التي تمكّن من رقي الإنسان، وعليه فإنّ المنهج الذي اتبعه من أجل هذا الإصلاح والتّغيير يبدأ من داخل النّفس البشريّة في وجدانها ومشاعرها وطرائق تفكيرها ومعتقداتها، لينسحب هذا التّحول الدّاخلي فيما بعد إلى تغيير ما حوله في المحيط الخارجي؛ لأنّ منهجه ليس قائما على النّقد فحسب وإنّما على إعادة النّظر والصّياغة والبناء في إطار واحد هو الإسلام وقيمته في توحيد الإنسانية.

– إنّ الاستراتيجيّة التي اتّبعها محمد إقبال هي حشد الحجج وتنويعها، وهي عمليّة واعية مؤسس لها بشكل دقيق واختيار موجّه نحو تحقيق غايات محدّدة.

– خطاب إقبال الشعري هو دعوة صريحة وواضحة إلى تبنّي جملة من القيم وتحويلها إلى مواقف وأفعال

– قدرة العوامل والروابط الحجاجيّة بما تحمله من معاني مخصوصة على التّحكّم في نسيج النصّ وبنائه وبالأحرى توجيهه نحو وجهة حجاجيّة معيّنة.

– قدرة الأفعال على معاضدة الحجاج وذلك ما لاحظناه في توظيف الشاعر لها خدمة لأفكاره.

– اختيار محمد إقبال أسلوب الأمر والنّفي له قيمة حجاجية؛ لأنّ من أعطى نفسه حقّا للحضّ والرّدع فقد أعطى لنفسه فرصة الظّفر بصفة الحكيم النّاصح الذّي خبر صروف الدّهر، وهذا ما جعله جديرا بأن يطاع ويتّبع.

قائمة المصادر والمراجع:

1–أحمد كروّم، الاستدلال في معاني الحروف –دراسة في اللّغة والأحوال –المطبعة والورّاقة الوطنيّة، المغرب، ط:1، 2000.

2–أبو بكر العزاوي، الحجاج في اللغة، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته (دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة) عالم الكتب الحديث، الأردن، ج:1. 2010.

3–أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، دار العمدة في الطبع، ط:1، 2006.

4–أبو الحسن علي الحسني الندوي، روائع إقبال، دار الفكر، دمشق، ط:1، 1960.

5– رشيد الراضي، الحجاجيات اللسانية والمنهجية البنيوية، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إشراف حافظ اسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ج:1، ط:1، 2010.

6– رشيد الراضي، المظاهر اللّغوية للحجاج، مدخل إلى الحجاجيات اللّسانية، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط:1، 2014.

7–شكري مبخوت، نظريّة الحجاج في اللّغة، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم إشراف حمادي صمود، فريق البحث في البلاغة والحجاج، كلية الآداب منوبة، تونس المجلد:xxxix .

8–صلف الشيء صلفا: أي قلّ خيره، سحاب صلف: قليل الماء، وفي المثل: رب صلف تحت الراعدة: يضرب لمن يتوعد ثمّ لا يقوم به، وللمكثر مدح نفسه ولا خير عنده.

9–طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التّكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط:1، 1998.

10–عبد اللّطيف عادل، بلاغة الاقناع في المناظرة، منشورات ضفاف: لبنان، منشورات الاختلاف: الجزائر، ط:1، 2013.

11–عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار كنوز المعرفة، ج:2، ط:1، 2015.

12- فاضل صالح السامرائي، معاني النّحو، دار إحياء التّراث العربي، بيروت،2007ج:3.

13-الفيروز أبادي، القاموس المحيط، حققه: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 2008.

14-محمد إقبال ، محمد إقبال الشاعر المفكر الفيلسوف، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري دار ابن كثير، بيروت، 2000.

15-محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، تر: محمد يوسف عدس، تقديم: الشيماء الدمرداشالعقالي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 2011.

16-محمد إقبال، ديوان محمد إقبال(أسرار إثبات الذات)، إعداد: السّيد الماجد الغوري ، تر: عبد الوهاب عزام ، دار ابن كثير، بيروت، ج:1، ط:2007،3.

17-محمد عزام، محمد إقبال سيرته فلسفته وشعره، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ،2014.

18-Oswald ducrot.*les échelles argumentatives.* paris: édition de minuit.(1980).

19-Oswald ducrot, les échelles argumentatives: نقلاعن رشيد الراضي، الحجاجيات اللّسانية . والمنهجيّة البنيوية، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة، إشراف حافظ الجديدة إسماعيلي علوي، ج:1، عالم الكتاب الجديد، الأردن، 2010.

20-oswald ducrot& anscombre, j. *argumentativité et informativite de la metaphysique a la rhetorique,* bruxelles: l'université de bruxelle. (1986)
نقلا عن عبد اللطيف عادل. ، بلاغة الإقناع في المناظرة